سلسلة أعلام الريف (4):

السراج المنير الأزهر أبو إبراهيم إسحاق بن مطهر المعروف بالأعرج الورياغلي (ت683هـ)

• د. يونس بقَيان

في تاريخ الفقه الإسلامي بالمغرب حلقة بارزة لا يمكن تجاوزها؛ تتمثل في ظهور نخبة من العلماء الذين شكّلوا ما يُعرف بـ«شيوخ المدونة» خلال العصر المريني. وقد أشار الفقيه المنوني إلى اثنين منهما من الرّواد الأوّل لبعث المذهب المالكي في المغرب المريني، أولهما: أبو الفضل راشد الوليدي صاحب «كتاب الحلال والحرام». وثانيهما: الذي يدور في فلكه هذا المقال؛ هو الفقيه العلامة أبو إبراهيم إسحاق بن مطهر الورياغلي، المعروف بالأعرج، والذي حلّاه تلميذه البادسي بأوصاف منها: الفقيه العالم العلامة الأشهر، السّراج المنير الأزهر الأعرف الأظهر الأزكى الأطهر[1].

نسبه ولقبه:

ينتمي أبو إبراهيم إلى قبيلة بني ورياغل أكبر قبائل الريف الأوسط، وتحديدًا إلى فخذ بني يملك (بومالك). أما لقبه «الأعرج»، فثمة روايتان في كتب التراجم حول سبب إطلاقه عليه: الأولى، أوردها البادسي، وتشير إلى أن إصابة تعرض لها أثناء دراسته في قبيلة سدراتة أدّت إلى عرجة شديدة، حيث تعرض له لصوص بالليل فأصابوا رجله. أما الثانية، فنقلها البوعياشي من مخطوطات خاص، تفيد بأنه امتطى جوادًا ذات مرة وتعثر به فالتوت قدمه وعرج منها دون الإشارة إلى شدة العرج.

رحلته في طلب العلم:

طلب العلم بمدينة فاس، منارة الفكر وملتقى العلماء. وفيها تتلمذ على أيدي نخبة من علمائها، منهم العلامة أبو محمد صالح الهسكوري (ت653هـ) وغيره من العلماء، فلزم مجالسهم وحلقاتهم، وارتوى من معين علومهم التي كانت تدرّس وقتئذ، حتى تأنّق في ضبطها وتنوّق في إتقانها، واشتهر ذكاؤه وإدراكه مما جعل شيخه الهسكوري يصفه بـ«أوحد زمانه في الفقه والسخاء، وأحفظ خلق الله لأسباب الإخاء»، ومنذئذ بزغ نجمه وعلا كعبه ورسخت في العلم والمعرفة قدمه، فجمع إلى العلم الأخلاق والشرف والنسب. ثم انتقل إلى الريف واستقر في جبل حمام، حيث نمى عشه فربّى أبناءه في بيئة وفية لجذوره في الشرف والنسب والدين. وقد بارك الله في ذرّيّته، فكان منهم حفيده العلامة الفقيه أبو فارس عبد العزيز الورياغلي (ت880هـ).

أقام في موضع يُعرف بـ «أغيل ابزور» فنُسب أبناؤه وأحفاده إليه فيما بعدُ بالغلبزوري، فهو جد الأشراف الإدريسيين الغلبزوريين ببني ورياغل. انتقل بعدئذ إلى حاضرة بادس من قبيلة بقّوية واتخذ من جامعها الكبير مقامًا لتدريس «المدونة» بتهذيب البرادعي. ومن حوله التفّ طلبة العلم يتلقفون دروسه بلهفة، ونبغ منهم من خلّد اسمه في التاريخ، وعلى رأسهم الفقيه الأديب والمؤرخ الأريب عبد الحق البادسي (كان حيا عام 722هـ)، وأبو يعقوب يوسف البادسي (ت734هـ) «كبير الأولياء وآخرهم بالمغرب» كما وصفه ابن خلدون. وفي ظروف لا نعلم عنها شيئا جنح إلى العودة لفاس مرة أخرى أستاذا ومعلما ومربيا. رافقه في عودته بعض من تلامذته الأوفياء، ليواصل هناك مسيرة التدريس والعطاء، وقد عُين إماما بمسجد الشطة، واستمر في نشر العلم معتمدا على «المدونة» التي كانت ركيزة علمه وميدان اجتهاده. وكان من أبرز من تلقى عنه في هذه المرحلة أبو الحسن الزرويلي الفقيه المعروف.

أثره العلمي ومواقفه النبيلة:

بلغ اهتمام المترجَم بـ«المدونة» إلى درجة أن أصبح من حفّاظها والمعلقين على مسائلها، فقد كتب عليها «طررًا» تجاوزت تسعة مجلدات، ثم شرحها وأكملها بعده الفقيه الكرسوطي (ت758هـ) في كتابه «الغرر في تكميل الطرر». ورغم عدم معرفة مسارها الآن، إلا أن أثرها مَشرعٌ يغذي المدونات الفقهية، فلا تكاد تجد مدونة في النوازل الفقهية إلا وترجيحاتُ الأعرج حاضرةً فيه، وطرره معتمدة عند المالكية، ويكفي في التنويه بشأنها قول صاحب «البوطليحية»: «واعتمدوا الطرر لابن الأعرج × وطرر الطنجي غير بهرج».

وكان سمحًا في تعامله، ليّن العريكة، كريم النفس، سريعا في عطائه، كثير الحدْب على الفقراء والمحتاجين. وكان قويا في إيمانه، صلبا في مواقفه، وصفَه تلميذه البادسي بأنه «قليل المِنّة، شديد المُنّة»، «وقد قيل: إنّ التّصوّف مِنة ومُنة».

ومن جميل آثاره وجزيل إيثاره، ما ذكر تلميذه عبد الحق البادسي أنّ والده لما أراد التوجه إلى تجيساس من بلاد غمارة بأولاده وركبوا في زورق فخرج عليهم قراصنة البحر من النصارى بمرسى ياليش (كلايريس) فأسروا زوجته وابنتاه، لجأ إلى فاس طلبًا للمساعدة من السلطان أبي يوسف المريني، كما لجأ إلى المترجَم الذي لم يكن يملك سوى نصف دينار فدفعه له ودعا لهم. وفي اليوم التالي رجع ليودعه فوجد عنده ستة وعشرين دينارا ذهبا أرسلها أحد المحسنين فدفعها له. ثم قضى السلطان حاجتهم فاستطاعوا تحرير الأسرى، وكل ذلك كان ببركة دعاء الشيخ حسبما يذكر البادسي.





بلغت مكانة المترجَم علمًا وولاية أن السلطان أبا يعقوب يوسف المريني كان يقصده في جامع القرويين ويطلب منه الدعاء. ومع ذلك، لم تخْل حياته من المحن، فلم يكن على وِفاق دائم مع بعض معاصريه من فقهاء فاس؛ إذ وقعت منازعة فقهية -لم يصلنا موضوعها «كان الصّواب فيها قائده والإصابة رائده» كما يقول البادسي- تسببت في انقسام الطلبة بين مؤيد ومعارض فاستغل بعضهم الحادثة ووشى بهم بتهمة مخالفة السلطان. فأمر السلطان فنُفِي الورياغلي مع مجموعة من الفقهاء، منهم أبو يعقوب المحساني، وأبو عبد الله بن عمران، ولكن ما لبثت أن ظهرت براءتهم من الفرية التي ألصقت بهم، وتبيّن ظلم الشرطي ابن العطور الذي دبّر المؤامرة؛ فعاد العلماء مكرّمين، وأعادهم السلطان إلى مكانتهم.

أقبل في آخر أيامه على التصوف، وكان يرى أن الخضر عليه السلام حي يراه الصالحون، وأن رؤيته علامة صدق وولاية. وأن من تجسدت فيه خصال الإخلاص، والرضا، واليقين، يراه لا محالة.

توفي أبو إبراهيم الأعرج الورياغلي عام 683هـ، ودفن خارج باب الجيسة بمدينة فاس، وما يزال ضريحه شاخصًا إلى اليوم، وقد بُنيت عليه قبة بأمر السلطان المولى سليمان رحمة الله عليهم جميعًا.

---

1 ـ مقدمة كتاب الحلال والحرام للوليدي، تحقيق يونس بقيان، ط، دار الفتح، 2021م، المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف (ص130، 224، ط، الرابطة)، وتاريخ ابن خلدون (1/407، و6/152)، وبرنامج التجيبي (ص268)، ودرة الحجال (1/207)، ونيل الابتهاج (1/146)، وكفاية المحتاج (1/176)، والروض العطر الأنفاس (ص289)، وجذوة الاقتباس (ص164)، وسلوة الأنفاس (3/141)، والمنار المنيف (ص45)، و«إسحاق بن مطهر الورياغلي وجهوده في خدمة المذهب المالكي من خلال طرره على المدونة» (ص11)، للدكتور أحمد الفقيري. و«رحلة بومالك» مقال الأستاذ فؤاد الغلبزوري نشر بأصوات الريف، عدد 21 مارس، 2015. و«إضاءات شرفاء أيث ورياغل» نشر بأصوات الريف الجزء الأول عدد 19 يونيو 2014، والثاني عدد 20 دجنبر 2014. ووثيقة، ومنظومة خطية تتعلقان بنسب الشرفاء الغلبزوريين، من أرشيف الأستاذ فؤاد الغلبزوري.